مجلة تراثية نصف سنوية محكمة

المورد

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق

المجلد العشرون ـ العدد الثاني ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م

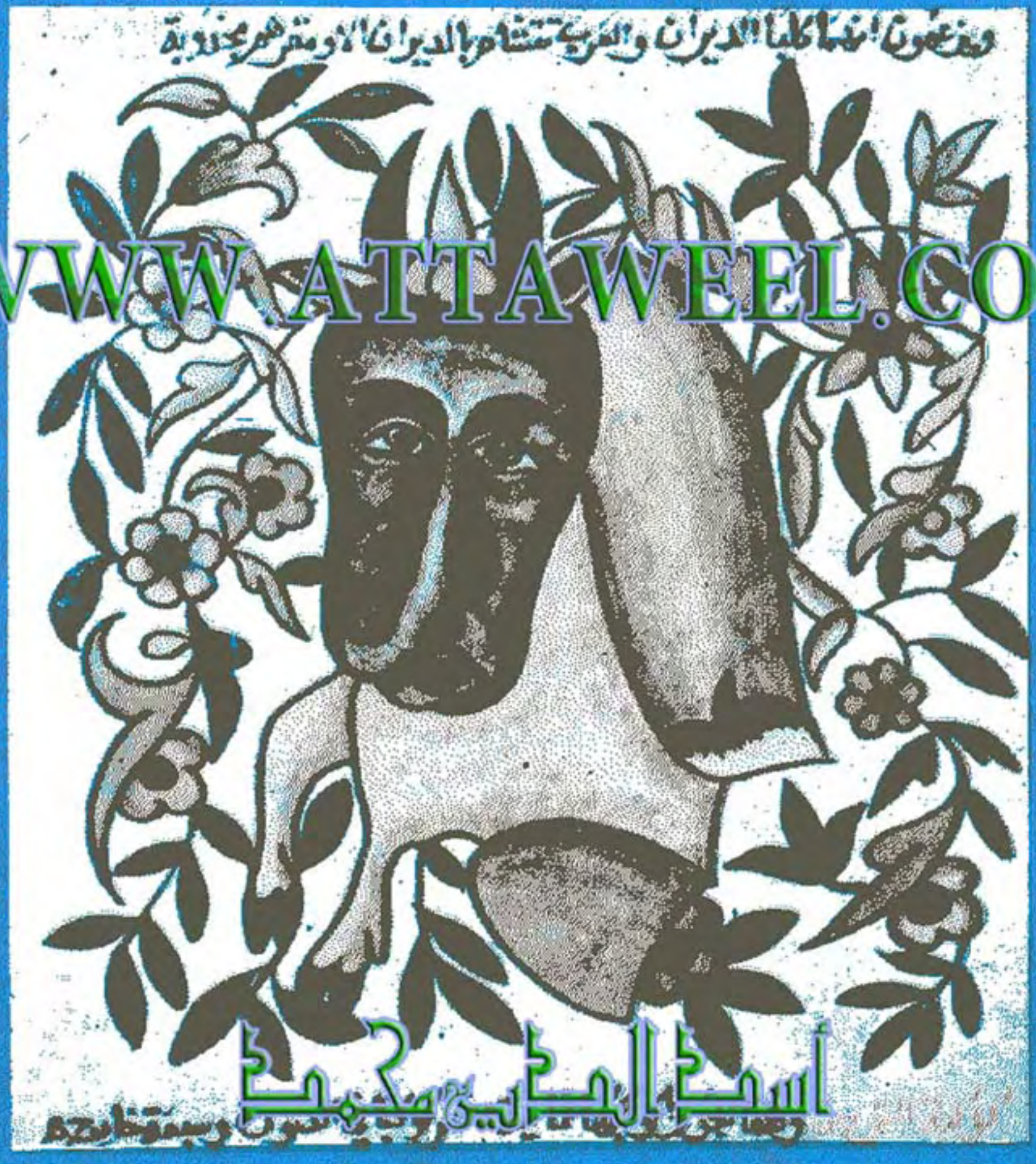

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين شيركوه

الاحلام وتفسيرها في التراث العربي

شعراء الأحلام

بقلم

د. يونس أحمد السامرائي

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

أود قبل البدء بالبحث والاسترسال فيه أن أشير الى انني سأقتصر على تعريف الاحلام وذكر أسبابها على ما جاء في المعجمات العربية والنصوص الشعرية ، وساتجاوز المؤلفات الحديثة التي عنيت بهذا الامر ، لاعتقادي ان ما جاء في المعجمات العربية والنصوص الشعرية لا يبعد كثيراً عما جاء في تلك المؤلفات والبحوث الحديثة . واقتصاري هذا على ما أشرت اليه يجعل البحث في اعتقادي أكثر دقة ، وأقرب الى مفهوم أصحاب المعجمات والشعراء منهما الى أيّ شيء آخر . وساتمثل خلال البحث بنصوص أراها ضرورية مرة ، وساجتزىء بالاشارة الى المصادر مرة اخرى .

جاء في القاموس المحيط واللسان :

(الحُلْم والحُلُم : الرؤيا . والجمع أحلام . وفيهما : حلم في نومه واحتلم وانحلم . وتحلّم : اذا ادعى الرؤيا كاذباً .

وفي اللسان : (والرؤيا والحلم : عبارة عما يراه النائم في نومه من الاشياء . ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن ، وغلب الحلم على ما يراه من الشر والقبيح . ويستعمل كل واحد منهما موضع الآخر) .

ويندرج ضمن الحلم الطيف الذي جاء من معانيه في اللسان والتاج : الغضب والحسّ والخيال نفسه . يقال : طيف الخيال وطائف الخيال وطيف الخيال : الذي يراه النائم .. والجمع أطياف) .

واذا كانت الرؤيا غير واضحة قيل لها أضغاث أحلام .

وفي التاج : (وكلام ضغث : لا خير فيه والجمع أضغاث ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين ﴾[1] هي رؤيا لا يصح تاويلها لاختلاطها والتباسها . وسميت أضغاث أحلام ؛ لانها مختلطة ، فدخل بعضها في بعض ، ولم تتميز مخارجها ، ولم يستقم تاويلها ، ويقال للحالم : أضغثت الرؤيا : أي جئت بها ملتبسة) .

وفي هذا يقول أحدهم :

الى الله أشكـــو كلّ يـــوم وليلـــة
إذا نمت لم أعـــلم خواطـر أوهـام
فان كان شراً كان لا شك واقعاً
وإن كان خيراً كان أضغاث أحلام[2]

والاحلام والأطياف قديمان قدم الانسان ، وقد جاءا في شعر الكثيرين من القدامى ، وفي كتاب (طيف الخيال) أمثلة لجران العود وقيس بن الخطيم وعمرو بن قميئة وطرفة وعبيد بن الابرص وسواهم فضلًا عن الشعراء المتاخرين عنهم وخاصة شعراء العصر العباسي[3].

وهذه الكثرة من النماذج الشعرية في هذا الفن الشعري حملت بعضهم على أن يطلب الى بعض الادباء التاليف فيه . وقد نهض بهذا الطلب الشريف المرتضى الذي أشار في مقدمة الكتاب الى هذا الامر ، فقال :

(.. ودعاك ما وقفت عليه[4] منه الى التماس كتاب في أوصاف طيف الخيال نسلك فيه هذا المنهج ، ونخرجه هذا المخرج . فانه أيضاً باب قائم بنفسه قد أطال الشعراء فيه وأقصروا ، وأصابوا وأخطاوا ، وتصرّفوا وتفننوا)[5].

لقد عقد الكتاب على هذا الفن وضم أربعة شعراء عباسيين هم أبو تمام والبحتري والشريف الرضي وهو فضلًا عن عدد من الشعراء الذين تقدموا عليهم زمنياً . وهذا يعني ان هذا الفن كثر لدى الشعراء العباسيين أكثر من سواهم حتى ليمكن القول ان هذا الفن أصبح يشكل ظاهرة شعرية عباسية ، كان البحتري يقف شامخاً على رأس شعرائها لكثرة ما قال فيه وتفنن وتصرّف .

ومما ينبغي ذكره ان هناك من سبق المرتضى في وضع فصول من هذا الفن في غضون مؤلفاتهم ، ذكر ذلك محقق كتاب

طيف الخيال في اللحق الذي صنعه في أعقاب الكتاب ، ونقله عنه محقق رسالة الطيف[٦].

وعلى الرغم من ان الحلم يكاد يتفق على حقيقته ، فان هناك شيئاً يترجح بين الظن واليقين في حقيقة كون الطيف حلماً واقعاً أو غير ذلك ، وان كان الشعراء اعتبروه أمراً واقعاً وحقيقة لا شك فيها .

وفي قول الشريف المرتضى ما يشير الى هذا ، جاء في مقدمة كتابه :

(ومما يفيد تقديمه : ان الطيف قد يوصف بالمدح تارة وبالذم اخرى ، ولمدحه وجوه متشعبة . فمما يمدح به انه يعلّل المشتاق المغرم ، ويمسك رمق المعنّى المسقم . ويكون الاستمتاع به والانتفاع به ، وهو زور وباطل ، كالانتفاع لو كان حقاً يقيناً . وهل فرق بين لذة الخيال في حال تمثلها وتخيلها وبين لذة اللقاء الصحيح والوصال الصريح ؟ وبعد زوال الامرين ومفارقة الحالين ما أحدهما – في فقد متعته وزوال منفعته – إلّا كصاحبه)[٧].

وجاء في موضع آخر من الكتاب :

(وانما تعجب الشعراء من اهتداء الطيف وتخلصه الى المضايق وخفيّ المسالك : لانهم فرضوا زيارته زيارة حقيقية وطروقاً صحيحاً ، فتعجبوا مما يتعجب من مثله في ذلك من طيّ البعد في أقصر زمان ، ومن الاهتداء بغيرها ولا مرشد مع تراكم الظلم وتشابه الطرق وفقد الظّهر ، ومن فرض شيئاً أجرى أوصافه له على ما فرضه دون ما هو عليه في نفسه)[٨].

وعلى هذا فهل بمقدورنا أن نعد طيف الخيال هذا – في ضوء ما يفتقده الشعراء من كونه حقيقة – حُلماً يقظة – كما يسمى في العصر الحاضر ، وان اشارة المرتضى تدل على هذا حين قال : (وقد تعجب الشعراء كثيراً من زيارة الطيف على بعد الدار ، وشحط المزار .. لان الشعراء فرضت أن زيارة الطيف حقيقة ، وانها في النوم (كاليقظة)[٩].

غير ان المرتضى أشار في موضع آخر من كتابه أيضاً ما يدل على ان الطيف لم يكن حقيقة لدى الشعراء . قال :

(فما زالت الشعراء في القديم والحديث تصف الطيف بانه طمع كاذب ، وظن باطل ، وظل زائل ...)[١٠]. أو هل بمقدورنا أن نعده حالة تقرب من التصوف في حالتي التواجد والغيبوبة ؟ أما نحن فنرى ان شعر الاحلام ومنه شعر الطيف ، لا يمثلان شيئاً من الحقيقة ، وانما هما وليدا أخيلة الشعراء وتحلمهم .

والاحلام ومنها الاطياف على ما يبدو تتميز أوقاتها بالقصر على حد قول أبي تمام في وصف أيام حبه ووصاله :

ولقد أراك فهل أراك بغبطة
والعيش غضّ والزمان غلام
أعوام وصل كان ينسى طولها
ذكر النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أربدت
بجوى أسنّ فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام[١١]

ولكن ما سبب أحلام الشعراء وزيارة الاطياف ؟

ان ما وقفنا عليه من أسباب الاحلام يتحل الى امور عدة منها :

طلب الرفد ، فقد يجد الشاعر فيمن ينتجعه ويسترفده شيئاً من صعوبة استرضائه والحصول على ما يبتغيه منه ، فيعمد الى التذرع بوسيلة اخرى لعله يجد فيها ما يرضي من بيده العطاء والمال ، ويلجأ الى انه رأى رؤيا يستأذن منه الى قصها عليه ، فيأذن له فيقول :

أغفيت قبل الصبح نوم مسهد
في ساعة ما كنت قبل أنامها
فرأيت أنك رعتني بوليدة
مغنوجة حسن عليّ قيامها
وبدرة حملت اليّ وبغلة
شهباء ناجية يصل لجامها[١٢]

فيقول الرجل : كل شيء رأيته فهو عندك إلا البغلة فانها دهماء ، فيقول الشاعر امرأته طالق ثلاثاً ان كان رآها إلا دهماء ولكنه غلط[١٣].

وقد يهزأ بعضهم بالشاعر وحلمه ولكنه مع ذلك يأمر له بما حلم به ، من ذلك ان أحد الشعراء قدم على أحد الولاة فكتب اليه :

رأيت في النوم أني راكب فرساً
ولي غلام وفي كفي دنانير
فجئت مستبشراً مستشعراً فرحاً
وعند مثلك لي بالفعل تبشير

فوقع اسفل كتابه : (أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين)[١٤]، ثم أمر له بكل ما رآه في منامه[١٥].

ومنها : التنبوء بما سيحدث لبعض ولاة الامور ، والتحسر على ما سيؤول اليه من مكروه وفي حادث مقتل الخليفة المتوكل ، والتنبؤ بما سيقع له من أذى على لسان أحدهم رأى حلماً في نومه دليل على هذا[١٦].

ومنها في باب الطيف صعوبة اللقاء بالمحبوب ، وتعذر الوصول اليه ، ويكاد شعر هذا الفن يقوم على هذا الأمر برمته ، من ذلك قول البحتري :

إن زيًا لم تسقِ ريّاً من الوصـ
ـل ولم تدر ما جوى العشّاقِ
بعثث طيفها إليّ وبوني
وخد شهرين للمهارى المِتاقِ

زار وهنـــاً من الشـــآم فحيّـــا
مستهـــاماً صَبَـا بـارض العـــراق
فقضى مـــا قضى وعـــاد إليهـــا
والـــدجى في بُـــرده الاخـــلاق
قـــد أخـذنـا من التـلاقي بحظّ
والتلاقي في النوم عدل التلاقي[17]

وبعد ، فما قيمة هذا النوع من الشعر؟

الحق ان الشعراء وخاصة شعراء الطيف قد ارتفعوا ما وسعتهم طاقاتهم الشعرية بهذا اللون من الشعر الى أعلى درجات البراعة والاجادة والتفنن سواء كان ذلك في الالفاظ أو الاخيلة أو تشقيق المعاني وتشعبها . ويظهر ان اقتصار اغلبه على فن الغزل وانبهار شعرائه ودهشتهم بمفاجآته لهم من زيارة أحبابهم لهم ، واحساسهم بالغبطة واللذة من هذه الزيارة من آثار هذه الخصائص التي امتاز بها ؟

وقد ألمح المرتضى الى شيء من هذا في قوله :

(وهذه المعاني في المدح أو الذم ، قد تتشعب وتتركب وتمتزج ، فيتولد بينها من المعاني ما لا ينحصر ولا ينضبط بحسب قوة طباع الشاعر وصحة قريحته وغريزته)[18].

ومن حسن الحظ ان هيىء لمثل هذا الفن شعراء كبار من العصر العباسي امتازوا بالشاعرية الضخمة ، والموهبة العظيمة ، والقدرة على التصرف والابداع في كل ما يتعلق به .

وقد أحسن المرتضى في تعليقاته على نماذج من شعر أبي تمام والبحتري ، فقال معلقاً على بيت لابي تمام : (واما البيت الثاني فجيد المعنى ، مليح اللفظ ، ومن عذب اللفظ وغريبه قوله)[19].

وقال أيضاً معلقاً على أبيات للبحتري :

(ونقول : ان الابيات ناصعة الجمال ، بعيدة المثال ، وفي البيت الاخير الذي أوله :

ويكفيك من حق تخيّلُ باطل

معنى جليل القدر ، ثقيل الوزن ، له غور عميق ، وأس وثيق)[20].

ولعل أهم ما لهذا اللون من أثر في الشعر كونه ـ كما تقدم ـ أصبح ظاهرة شعرية بارزة فيه ، له شعراؤه وسماته الخاصة .

الهوامش

(١) يوسف / ٤٤ .
(٢) شرح مقامات الحريري ، ١ / ١٣٢ .
(٣) انظر : ص ١٤ ، ٤٥ - ٤٦ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣ . وانظر : رسالة الطيف ٣ - ٩ .
(٤) أي كتاب (الشهاب في المشيب والشباب) .
(٥) طيف الخيال ، ٣ .
(٦) انظر : ص ١١ .
(٧) ص ٥ .
(٨) ص ١٠٨ .
(٩) ص ٦ .
(١٠) ص ١٠٩ .
(١١) ديوانه ، ٣ / ١٥١ - ١٥٢ .
(١٢) البدرة : كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ويقدم في العطايا .
(١٣) انظر : شرح مقامات الحريري ، ١ / ١٣٢ .
(١٤) يوسف ، ٤٤ .
(١٥) شرح المقامات ، ١ / ١٣٢ .
(١٦) انظر : تاريخ الطبري ٩ / ٢٢٩ ، وفيه مثلان من هذا النوع ، وانظر : شرح المقامات ٣ / ٨٠ ، والبحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ، ٢٧١ .
(١٧) طيف الخيال ٢١ - ٢٢ ، وديوان البحتري ١٤٦١ .
(١٨) نفسه ، ٧ - ٨ .
(١٩) طيف الخيال ، ١٩ .
(٢٠) نفسه ، ٢٩ .

• • •